

## على حافة الفجر وشاطئ النيل

الليل قد مضت ساعاته، ودارت دورتها نجومه، بين بعيد عن القطب قد غرب أو كاد،  
وقريب منه تزاور عن الأفق الغربي شطر الشمال والشرق. هذه بنات نعش الصغرى  
طائرات صوب الشرق، والفرقدان يتطلعان إلى أشعة اليوم الوليد وراء الأفق:

فاسأل الفرقدين عن أحسا      من قبيل وأنسا من بلاد  
كم أقاما على زوال نهار      وأنارا لمدلج في سواد

وبنات نعش الكبرى كادت تلامس الأفق، وكأنها جواد محضر على حافة الأفق يبغي  
مستقره قبل الصبح.  
وها هي الثريا جاوزت جوز السماء، نازعة إلى أفقها البعيد في المغرب، تذكر بقول  
ذي الرمة:

وردن اعتسافاً والثريا كأنها      على قمة الرأس ابن ماء مطلق<sup>١</sup>

وراء الثريا الدبران يحث قلاصه؛ ليدرك خطيبته بهذا الصداق، لم ييأس منها على  
طول إعراضها، ولم يمل على تمادي المسير.<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> ابن الماء: طائر.

<sup>٢</sup> في أساطير العرب أن الدبران خطب الثريا، وساق إليها مهرها من الإبل، وما يزال يتبعها بهذا المهر،  
وهذه الإبل نجوم تظهر بين الدبران والثريا.

وهناك المجرة نهر السماء الذي لا يسبر لجه، ولا يدرك غوره، بل نهر الزمان يسيل بالعصور والدهور، يحسر الفكر على شاطئه، ويعيا الوهم دون منبعه وغايته، عالم وراء العالم، وفلك فوق الفلك. وصور أخرى رائعة هائلة تتجلى بها السماء في هذا الصفاء. يرقى الفكر إلى هذه المشاهد العلوية، فيوغل فيها ثم يوغل حتى ينبهر، فيهوي حسيراً مرتاعاً كشیطان الرجم يلتمس مكانه على الأرض، يهول الفكر هذا العظم الذي لا يحد، والجلال الذي لا ينتهي، والغور الذي لا يبلغ، والحجاب الذي لا يخترق، ويفزعه جو تتحطم فيه الأجنحة، ومدى يعيا الطيران في أوله، فيفر من هذه السعة الهائلة التي يفنى فيها المكان إلى الأرض، ثم إلى مكانه الصغير منها، ويعتصم من هذا الكون الفسيح الذي يتيه فيه الزمان إلى الزمن، ثم إلى ساعة منه، يحتمي بهذه الحدود، ويأنس بهذه القيود.

ثم تطمح النفس الإنسانية، بل الشعلة الإلهية إلى العلاء طموح النسر إلى متقلبه من جو السماء، فتقطع قيلاً بعد قيد، وتجتاز حدّاً بعد حد، وتخرج من دائرة بعد دائرة، فإذا هذا الجسم المحدود، والعقل المكود هاجم فيما وراء الحدود، يحاول الأمر الذي لا ينتهي، والعلم الذي لا ينال.

ثم يعيا وينبهر، فيهبط إلى أرضه ومكانه، ووقته وزمانه، ولكن بصره إلى السماء، وهمته إلى العلاء، وطموحه إلى الإدراك، في الأفلاك وما وراء الأفلاك، وهكذا يعلو ويسفل، ويقدم ويحجم، وينزع ويرجع، حائرًا بين كونه المحدود، وطوقه المجهود، وبين طموحه الذي يأبى القيود، متردداً بين عالمه الأصغر والعالم الأكبر، بين نفسه الصغرى والحقيقة الكبرى، بل بين الإنسان والله.

أفزعني هذا المراد، وهالني هذا الجهاد، فأويت إلى الحد بعد الحد، والستر من وراء الستر، حتى أمنت على نفسي في موقف الضيق، على هذه البقعة الصغيرة، فوق هذه الأرض المحدودة، فنزلت من الحقائق الواسعة إلى الدوائر الضيقة، من الوجود المطلق إلى الوجود المقيد، وما زلت أجتاز أجناساً إلى أجناس، وأنواعاً إلى أنواع، فإذا أنا مطل من داري على شاطئ النيل، في ليلة من ليالي رمضان وقت السحر.

وأشفقت أن ترفعني صور النجوم في الماء إلى حقائقها في السماء، وأن يسلمني نهر النيل إلى نهر المجرة، وأن تردني إلى حيث فررت، هذه الصلات الوثيقات بين الصغير والكبير، والمطلق والمقيد، وبين الذرة والشمس، فألححت على الفكر أن يحبس، في هذا المشهد المحدود، وألزمت العقل الإخلاق إلى هذه الأرض.

ثم كدت أسير مع النيل إلى منتهاه فيصلني بالأبد، أو أرجع معه إلى منبعه، فيسلمني إلى الأزل، فحبست عياني على ما أمامي، وفكري في مرآي، كما يحبس الطائر الوحشي في قفص، ويلهى بالحب عن أطباق الجو.

رأيت النيل رهوًا تتراءى في صفحته مصابيح ساكنة خافتة مطلة من شاطئ الجيزة، ورأيت الزرع نائمًا تمسحه نسמת الفجر رفيقة مشفقة، كأنها أم توقظ طفلها، وأنسني الليل الساجي، والمنظر الصامت، والمشهد المصغي، والطبيعة النائمة، بل الخليقة الحاملة، لا أسمع ركزًا إلا صيحات متفرقة من ديكة متباعدة، كأنها قبل صيحاتها للفجر نغمات متقطعة يمهدها الموسيقي لألحانه المتصلة، وإلا نقيق ضفادع قليلة مشتتة، وإلا صرير الجنادب بين الزروع موحدًا متصلًا خافتًا، لا يقطع الفكر، بل يسايره مطردًا كأنه مرور الزمان.

ثم انغل الفكر في الناس، فإذا هم بين يقظان انطوت على البر جوانحه، وعمر بالخير قلبه، ونطق به لسانه، يسبح الله، ويفكر لخير نفسه وخير الناس في مثواه، وآخر يقظ يقظة الصل، ينساب في مجاثم الظلام إلى الآثام، وإذا هم بين نائم يستجم بالرقاد؛ ليستأنف الجهاد، ونائم أنامته البطالة، وأماتته التخمة، لا يفتقده نائمًا عمل ولا أمل، ولا تحمد يقظته حركة ولا سكون.

وإذا هم بين حالم سوت أعماله أحلامه، ينشره النهار للضر، ويطويه الليل للشر، ويسلمه النهار الأثيم إلى الحلم الأثيم، وآخر أضاءت رؤياه نيته، وازدهرت بالحلم الطيب طويته، فهو خير اليقظة والنوم، طاهر الحقائق والرؤى، وضروب أخرى من البشر طاف بها الخيال، واسع المجال، ثم انثنى قلقًا مضطربًا.

وكاد يخل هذا التفكير المتنافر بهذا المشهد المتألف، ويقطع الهم المضطرب هذا النغم المنسجم، فعدت إلى النيل أطلعه، والزرع أراقبه، والخليقة أنس بها، وأسكن إليها، وأتغلغل فيها وأناجها.

ودوت الأرجاء بالصياح، من ديكة الصباح، وانبجست النواحي بالأذان، يتجاوب في القلوب والأذان، وسرت في الخليقة قشعريرة هزت يقظانها وهاجعها، وأنعشت حياها وهامدها، وتوهمت أشعة الفجر الخفية، تخالط هذه الأصوات الندية، بل خلت الأشعة استحالت أصواتًا، أو الأصوات تحولت أشعة.

استحال العالم كله معبدًا، وبدا كل شيء رாகعًا أو ساجدًا، فهذه الأضواء، وهذه النسائم، وهذه المياه، وهذه الزروع، والديكة المؤذنة، والجنادب الصارة، كلها في خشوع

وقنوت، وتسبيح وتهليل، والنجوم الغاربة على الأفق ساجدة، والسماء المحدودة الخاشعة، لجلال الخالق راکعة، سمعت من الخليفة ومن قلبي ومن لساني الآية الكريمة، تفسيراً لما أرى وأسمع وأتوهم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

لم أجد غيري خالياً من الصلاة، ولم أر سواي شذوذاً في هذا النغم، فرددت نظرات في العالمين، ثم أسرع لأكون من الساجدين.